

الآني والزمني في الصناعة القاموسية العربية
instantaneous and temporal in mading
Arabic dedictionary

بلخوان محمد كمال*

المدرسة العليا للأساتذة مستغانم

(البلد)

Kkamel@hotmail.com

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٣/٠١/٠٢ القبول: ٢٠٢٤/٠١/١٨

النشر ٢٠٢٤/٠١/٢٢

ملخص:

ارتبطت محاضرات دي سوسير في البحث اللساني بتلك الثورة المنهجية في دراسة اللسان البشري، وإعادة صياغة مفاهيمه وفق منظور لم تألفه الدراسات اللسانية قبله، وقد عرفت اللسانيات التاريخية والمقارنة ازدهارا مملوسا بفضل جهود الحلقات اللسانية التي تأسست في بداية القرن التاسع عشر.

يعالج بحثنا هذا قضية حضور الزمن في الظاهرة اللسانية عند سوسير وكيف تجلى مفهومه في مختلف الثنائيات اللسانية، مثل لسانيات اللسان ولسانيات الكلام والبعد السانكروني والدياكروني في المعالجة المنهجية. وتبادلية العلامة ولا تبادليتها، وكيف أثرت هذه الأفكار في الصناعة القاموسية العربية حين طغت المعاجم الآنية على الساحة المعرفة القاموسية، ثم كان لظهور مشروع معجم الدوحة التاريخي للغة العربية الأثر البارز في البحث والتنظير التاريخي للمعجم من مفهوم المدونة والوحدات المعجمية والنص المعجمي الشارح للمعنى.

الكلمات المفتاحية: لسانيات؛ سانكروني؛ دياكروني؛ معجمية؛ معجم تاريخي

Abstract:

De Saussure's lectures on linguistic research were linked to that methodological revolution in the study of the human language, and the reformulation of its concepts according to a perspective that linguistic studies were not familiar with before. Historical and comparative linguistics has witnessed a tangible prosperity thanks to the efforts of the linguistic circles that were established at the beginning of the nineteenth century.

Our research deals with the issue of the presence of time in the linguistic phenomenon of Saussure and how its concept was manifested in the various linguistic binaries. Such as the linguistics of the tongue, the linguistics of speech, the sanchronic and the diachronic in the systematic treatment. the reciprocal and non-reciprocal. And how did these ideas affect the Arabic dictionary made when current dictionaries dominated the arena of dictionary knowledge. Then the emergence of the Doha Historical Dictionary of the Arabic Language project had a prominent impact on research and historical theorization of the dictionary, touching the concept of corpus, lexical units, and the lexical text explaining the

meaning.

KeyWords: linguistic ; sincronic ; diacronic ; lexical ; Historical dictionary. (° at least)

*المؤلف المرسل: بلخوان محمد كمال.

المقدمة:

لا يمكن أن نَسلم الظاهرة الاجتماعية مهما اختلفت طبيعتها من فعل الزمن وتأثيره، وإذا كانت الظاهرة اللسانية ظاهرة اجتماعية بامتياز فإن تأثير الزمن في حركيتها أثبت. وإذا رمنا تحسس كأبي طيب مبتدئ أثر الزمن في جسد اللسان؛ لوجدنا له أعراضا خارجية وأخرى داخلية. أما بلغة علوم اللسان فإن ثمة عوامل خارجية تؤثر إيجابا أم سلبا في اللغة مثل الرقي الحضاري والبيئة الجغرافية والتداخل اللغوي وغيرها، أما عن آثاره الداخلية فقد يتواشج الحدث اللساني مع الحدث الزمني، فيتفاعل مع بنيتة الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية والمعجمية على السواء.

وإذا حاولنا أن نرصد مكانة الزمن في الحدث اللغوي في تراثنا العربي، نجد مكوّنا أساسيا من مكونات الظاهرة اللغوية صوتا وصرفا ونحوا وتركيبا؛ فمباحث القراءات القرآنية - الصوتية - من مدّ ووقف وإدغام وغيرها هي في جوهرها مباحث في زمن التلقّظ. أما مباحث الصرف فيتجلى الزمن في دلالة الصيغ وتصاريف الأسماء والأفعال، أما النحو فقد استوطن الزمن في مختلف أبوابه ومباحثه، يقول الدكتور عبد المجيد جحفة: "لم يخصص النحاة القدماء، متقدمين ومتأخرين، بابا مستقلا يعرض إمكانات اللغة العربية في التعبير عن الزمن. وقد توزعت ملاحظاتهم حول الزمن على ظواهر نحوية كثيرة. ولعل السبب في ذلك أنّ الزمن لم يكن ظاهرة نحوية واضحة في تصوّر القدماء، ولهذا تفرّقت ملاحظاتهم الزمنية على عدّة أبواب: الفعل، والمشتقات، وأدوات النفي، والنواسخ، والظروف،... إلخ" (جحفة، ٢٠٠٦، صفحة ٤٦).

نبحث في مقالنا هذا عن علاقة البحث اللساني بالزمن حيث تجلّت في محاضرات دي سوسير بوجهين؛ اللسانيات الدياكرونية (التطورية)؛ وهي تنظر إلى الحدث اللساني في تطوره من حيث الأصوات والتراكيب والدلالات. واللسانيات السانكرونية (الآنية) وهي تعالج الظاهرة اللسانية في إطار زمني ومكاني محدودين. ومع ظهور مشروع معجم التاريخي للغة العربية كان على المعجميين واللسانيين استحضار الآليات الإجرائية للسانيات الدياكرونية قصد الاستفادة منها في إنجاز المعجم التاريخي. فأصبح الحقل المعجمي العربي بعد هذا الإنجاز ينظر إلى الصناعة المعجمية بثنائية سوسير، فأصبح هناك معاجم سانكرونية مثل المعاجم المتخصصة والمعاجم المدرسية، وأخرى دياكرونية. فانصب عملنا على الربط بين ما هو نظري عند سوسير وما هو إجرائي في إنجاز معجم تاريخي.

I. الزمن في الفكر اللساني الحديث

تبين لنا من خلال الإنجازات النظرية والإجرائية التي حققتها اللسانيات طيلة قرن من الزمن، أنّ مرحلة اللسانيات التاريخية كانت مرحلة مخاض معرفي، استطاع من خلالها دي سوسير استثمار مختلف المزالق التي وقع فيها البحث التاريخي ثم بنى نظرية لسانية قادرة بمنهجها دراسة اللسان البشري دراسة علمية.

لا تعدّ المفاهيم الأساسية التي طرحها سوسير للمناقشة والبحث في كتابه " دروس في الألسنية العامة " جديدة في الفكر اللغوي بل عرفها البحث اللغوي في مختلف محطاته الحضارية، ولكن السبق الذي يسجل للرجل في هذا المجال هو التحديد في المنهج والرؤيا المعرفية التي تناول بها موضوع اللسانيات ومفاهيمها.

بدأ سوسير مشروعه الفكري بتحديد موضوع اللسانيات ليستطيع من خلاله الولوج إلى مختلف المفاهيم التي أُنثت البحث اللساني عنده، فانطلق من منطلقين مختلفين؛ تجلّى الأول في موضع اللسان ومكانته في الظواهر اللغوية، ثم مكانته من الظواهر الإنسانية. وكانت نتيجة التحليل أنّ الموضوع الأساسي للسانيات هو اللسان، يقول دي سوسير: " أيّ العلم الذي يكون موضوعه الوحيد هو اللسان " (فرديناند، ٢٠١٦، صفحة ٣٧). بالإضافة إلى أنّ اللسان نسق من العلامات، مما جعل سوسير يبني نموذج اللساني على مفهوم الثنائية: اللسان والكلام، وما تفرّج منها من ثنائيات؛ لسانيات اللسان ولسانيات الكلام، اللسانيات الداخلية ولسانيات الخارجية، اللسانيات السانكرونية (السكوني) ولسانيات الدياكرونية (التطوري)، والمحور التركيبي والاستبدالي، القيمة والدلالة، العلامة اللغوية، اعتبارية الدلالة، خطية الدال، تبادلية العلامة ولا تبادليتها. وترتبط هذه المفاهيم والثنائيات فيما بينها بخيط سحري منهجي جعل من اللسانيات علما يتصف بالشمولية والانسجام وهذا الخيط هو التسق، يقول حنون مبارك: "استحضار مفهوم التسق بهدف التنصيص على تلازم العناصر اللسانية وتفاعلها واستحالة انفكاك بعضها عن بعض. ومن ثمة، التنصيص على وحدة الموضوع وانسجامه ووحدة النظرية اللسانية وانسجامها." (مبارك، ١٩٨٧، صفحة ٢٩).

نروم في هذا المقام البحث عن طبيعة العلاقة بين الزمن والحدث اللساني في فكر سوسير ومن خلال المفاهيم التي صاغها في دروسه وفي ذات الوقت من خلال الاتجاهات اللسانية التي تبنت فكره وبلورته أو من خلال آراء بعض الألسنيين العرب حين انصرفوا لشرح آراء سوسير وربطها بترائنا اللساني.

ويمكن حصر العلاقة الزمن بالحدث اللساني - حسب الدروس - في النقاط التالية:

أفضى تقسيم دي سوسير اللغة إلى لسان + كلام أثناء تحديده لموضوع اللسانيات إلى هزات ارتدادية فسّّم بموجبها الزمن البحث اللساني إلى قسمين مختلفين ومتباينين منهجيا وهما: اللسانيات السانكرونية ولسانيات الدياكرونية، يقول سوسير: " قليل هم الألسنيون الذين تفتنوا إلى أنّ تدخّل عامل الزمان من شأنه أن يخلق صعوبات من نوع خاص في الألسنية وأن يجعل عملهم أمام اتجاهين متباينين كل التباين " (سوسير، ١٩٨٥، صفحة

وإذا كان اللسان بتعبير سوسير مؤسسة اجتماعية فلم يسبق للزمن أن أحدث في علم من العلوم هذا الأثر. وقد تولّد هذا التّوجه من ضرورة علمية ومنهجية استطاع من خلالها سوسير التحديد الدقيق لموضوعه وتفادي الهنات العلمية التي وقعت فيها اللسانيات التاريخية (المقارنة) والنحو التقليدي على السواء، يقول: حنون مبارك: "ومن فضائل هذا الفصل تجنيب اللساني السقوط في المزالق التي وقعت فيها اللسانيات التاريخية ووقع فيها التّحو التقليدي، إذ اكتفى كل اتجاه من هذين الاتجاهين بمنظور واحد يبقى منظورا جزئيا. فالنحو التقليدي لم يمكنه منهجه الخاص من الوقوف على فهم جيد لحالات اللسان، واللسانيات التاريخية لم يسعفها منهجها الخاص في فهم طبيعة اللسان وكشف نسقه" (مبارك، ١٩٨٧، صفحة ٦٢). فانفراد اللسانيات التاريخية بالمنهج التاريخي المقارن وتقيّد النحو التقليدي بالآنية جعل لسانيات كل منهما تفشل في تحقيق الانسجام والشمولية.

لكي تحافظ اللسانيات على انسجامها وشموليتها المعرفية لا بد من تحديد الإطار المنهجي والمعرفي الذي تتحرّك فيه كل من السانكرونية والدياكرونية، فالسانكرونية تنصرف إلى العناصر اللسانية لذاتها ولسكونها بعيدة كل البعد عن أثر الزمن، أمّا التناول الدياكروني فإنه ينظر إلى العناصر اللسانية في علاقتها بالتسلسل الزمني، يقول حنون مبارك: "والسانكرونية هي العناصر اللسانية منظورا إليها في ذاتها، وفي سكونيتها أي خارج إطار الزمن لأن ولوج الذات المتكلمة لا يتأتى إلا بهذا الأسلوب. وبذلك تكون السانكرونية هي حالة اللسان معين في تعايش أطرافه تلازمها" (مبارك، ١٩٨٧، صفحة ٦٢). ويقول في سياق آخر عن الآلية الدياكرونية: "أمّا الدياكرونية، فهي العناصر اللسانية منظورا إليها في علاقتها بالتسلسل الزمني وأثره المعرّب (بكسر الياء). فالأمر لا يعدو أن يكون اهتماما بالعناصر في تعاقبها وصلتها بالتطور" (مبارك، ١٩٨٧، صفحة ٦٣).

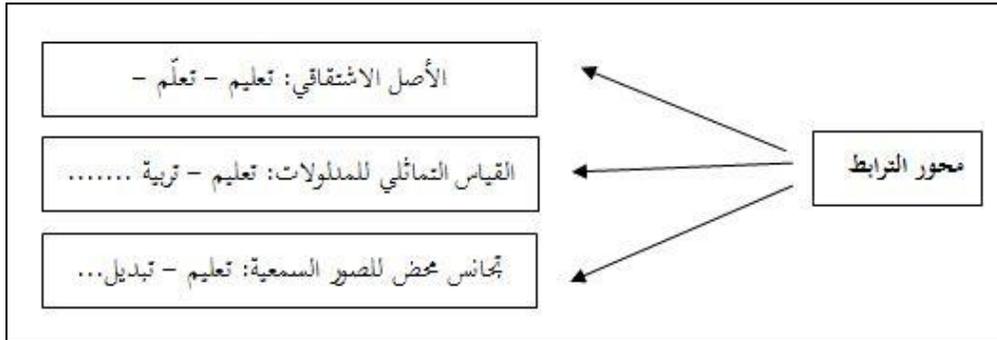
وقد أدى البحث في الظواهر الصوتية في كتاب سوسير من التبدلات التي تطرأ على الوحدات الصوتية والمقاطع، والثبوت الذي اتصف به النحو أن يجعل مجال السانكرونية النحو والدياكرونية مجالها علم الأصوات يقول: "أمّا اللسانيات الدياكرونية فموضوعها هو علم الأصوات (أي علم الأصوات التاريخي). ومرد ذلك إلى أنّ تطوّر الأصوات لا يجد أي موقع له في حالة اللسان. وإذا كان كل ما هو صوتي غير دال وغير نحوي، أي لا يتملك قيمة دلالية أو نحوية، فإنّ الدياكرونية تناسب اللانحوي." (مبارك، ١٩٨٧، صفحة ٦٩)

يتجلى فعل الزمن في الخاصية الثانية للعلامة وهي "خطية الدال" يقول سوسير: "لما كان الدال ذا طبيعة سمعية فإنّه يمتدّ منتشرًا في الزمان ويجري فيه فقط، ثمّ إنّ خصائصه مستعارة من الزمن. (أ) يمتاز بكونه ممتدًا و(ب) هذا الامتداد يمكن أن يقاس من بعد واحد هو خط طولي." (فرديناند، ٢٠١٦، صفحة ١٠٩).

يجيل هذا النّص إلى أنّ هذه الصفة مرتبطة أساسا بالدال لطبيعته الأكوستيكية دون المدلول، وقد أهمل سوسير فكرة أنّ أيّ تغير على مستوى خطية الدال تؤدي بالضرورة إلى تغير في خطية المدلول، لأنّ التغير في خطية الدال ليس لذاته بل لأجل قيمة دلالية، ولا تتوقف صفة خطية عند هذا المستوى بل ستحدث أثرا في مختلف العلاقات التي تأسست عليها مفاهيم سوسير اللسانية. وقد أشار سوسير إلى انتقال الخطية من الدال إلى اللسان في

سياق حديثه عن علاقات محور مركّب الترتيبي وعلاقات محور الاستبدال، يقول: " فمن ناحية أولى، نجد في كل قول استدلالِي أنّ الألفاظ تعقد فيما بينها حسب ترتيبها في السلسلة ضروبا من العلاقات المبنية على الخاصية الخطية الطولية للسان، وهي خاصية تستبعد وتنفي كل إمكانية للتلفظ بعنصرين اثنين معا " (فرديناند، ٢٠١٦، صفحة ١٧٨). يقر النصّ ظاهرا أن الخطية عند سوسير خطيتان؛ خطية ذو طبيعة أكوستيكية خاصة بالدال، وخطية اللسان ذو طبيعة تركيبية. وإذا تأملنا مليا طبيعة التتابع في خطية الدال وخطية اللسان نجد فروقا جوهرية تتمثل في أنّ علاقة العلامات فيما بينها في محور التركيب تخضع لقانون خاص لا يمكن تمثله في علاقة الفونيمات فيما بينها في خطية الدال.

بالإضافة إلى صفة الخطية التي ترتبط أساسا بمحور المركّب الترتيبي، تعرّض سوسير إلى آليات ترابط العلامات اللغوية في محور الاستبدال، يقول ميشال أرفيه عن العلاقة بين المحورين نقلا عن سوسير: " لقد لاحظنا بلا شك أنّ نمط عمل كل من العلاقتين مختلف. الأولى، تركيبية، تنشأ بين وحدات كلّها موجودة في الخطاب. لذلك يتحدّث سوسير بخصوصها عن "علاقات حضور" والثانية، ترابطية، تجمع عناصر غائبة عن السلسلة الخطائية: ويسمّيها سوسير "علاقات غياب" (أرفيه، ٢٠٠٩، صفحة ١٢١) يمكن أن نستنتج من هذا النصّ أن الزمن يؤثر في المحور التركيبي دو المحور الاستبدالي. ويكمن التوضيح أكثر بالشكل التالي:



فيمثل محور التركيب آلية اشتغال الزمن والآنية آلية المحور الاستبدال.

ويمكن في الختام استحضار مقولة ميشال أرفيه في علاقة الزمن بالوحدات اللسانية حيث يرى أن الزمن يؤثر في اللسان بتأثير مزدوج؛ الأول في تغيير المكونات الصوتية والصرفية والدلالية وثانيهما الحفاظ على استقرار العلامة. يقول ميشال أرفيه: "وهكذا يقوم الزمان في علاقته باللسان بدور مزدوج في آن واحد. فهو وإن كان له دور فاعل وحاسم في انتقال اللسان من جيل إلى جيل، ويعمل على التأثير فيه بتغيير مكونات الصوتية والصرفية والدلالية وتبدلها بنسب متفاوتة وبوتيرة مختلفة، يحافظ في الوقت نفسه على استقرار علامات اللسان ويضمن استمرارية استعمالها كما هي بالرغم من طبيعة اعتباطيتها" (أرفيه، ٢٠٠٩، صفحة ٢٠١)

II. المفاهيم اللسانية والمعجم:

لم تحظ الصناعة المعجمية أو علم المعجم باهتمام اللسانيات كما حظي علم الأصوات والنحو، إذ لا يمكن أن تقوم علاقة معيّنة ومحدّدة بين الوحدات المعجمية حتى تكتسي قيمة لسانية كما حدّدها سوسير، يقول الدكتور إبراهيم بن مراد: " لقد ذهب جل اللسانيين المحدثين - حتى أواسط السّنوات الثمانين على الأقل - إلى اعتبار المعجم - مقارنة ببقية النظم - ممثلاً للشذوذ (Irrégularié) والاستعمالات الخاصّة (Idiosyncrasies) في اللغة." (مراد، ١٩٩٤، صفحة ٣٢). ويقصد بالثُظُم في هذا السياق هو النظام الصوتي والصرفي والنحوي. ولكن مع التطور المعرفي الذي شهده البحث اللساني عامة والمعجمي بخاصة تبلوت فكرة أهمية الصناعة المعجمية والاصطلاحية في تسييج العلوم، إذ لا بد لأيّ علم في مرحلة تأسيسه أن يقيم لنفسه منظومة من المصطلحات تقبه الاختراق لموضوعه أو منهجه، وهذه الاستقلالية في المصطلح والموضوع والمنهج تيسر عليه إقامة علاقات منهجية مع علوم أخرى.

وما فتئ البحث في المعجم يتبلور حتى تهاوت بعض المفاهيم التي جعلت من المعجم قائمة من المفردات لا تحتكم لنظام وابعباره مستودع للشذوذ والاستعمالات الخاصّة. يقول عبد الرزاق بنور: " ليس المعجم صندوقاً من الألفاظ أو خزانة من الجذور بقدر ما هو منظومة متناسقة من العلاقات. بناءً عليه، تُمثّل الألفاظ في المعجم شبكة ترابط صوتي ودلالي؛ إذ لا يمكن تناول تطوّر استعمال لفظة من ألفاظ شكلاً أو محتوى، من دون النظر في طبيعة العلاقة التي تربطها بغيرها من تلك المنظومة." (بنور، ٢٠١٤، صفحة ١١٣)

بعد زوال العلاقة المتوترة بين اللسانيات بمختلف اتجاهاتها والمعجم، بدأت تتبين ملامح البحث المعجمي من حيث نظامه وبنيته وغدا التنظر اللساني مصدراً من مصادر الصناعة المعجمية وعلم المعجم.

نحاول في هذا الحيز المعرفي أن نرصد حركية المفاهيم اللسانية في البحث المعجمي ذهاباً وإياباً، لربط البحث المعجمي بأصوله اللسانية، فقد استطاعت النظرية المعجمية في مسارها التطوري أن تميّز بين نمطين مختلفين من الإجراء المعجمي وهي صناعة المعجم التي تهتم بتقنيات ترتيب المداخل وعلم المعجم الذي يعتبر امتداد للبحث اللساني النظري ومبحثاً من مباحث اللسانيات التطبيقية، يقول محمد رشاد الحمزاوي: " فالأولى وإن كانت عريقة فإنّها ليست سوى مجرّد تقنية تعتمد مناهج مختلفة في جمع مادة اللغة ووضعها " ترتيبها". أمّا الثانية فهي تهدف إلى دراسة المعجم دراسة علمية تعتبره تطبيقاً من تطبيقاتها بقدر ما يتطلّب من معرفة نظرية تتعلّق بتعريف الوحدات المعجمية أو المداخل كما تتعلّق بالانتساب إلى إحدى النظريات الدلالية وما لها من صلة بقضية المدلول العويصة" (الحمزاوي، ١٩٨٦، صفحة ١٧٠)

من هذا المنطلق المعرفي الذي تمّ رصده من خلال النصّ والمتمثل في المعرفة النظرية التي ينطلق منها المعجمي في عمله الإجرائي. نستحضر مفهوم اللسان كما تبلور في الدروس وكيف تمثّله البحث المعجمي يقول سوسير: " فاللسان موجود في الجماعة في صورة انطباعات وآثار موضوعة في دماغ كل فرد، كما هو الحال على وجه التقريب مع قاموس ورّعت نسخته المتشابهة بين الأفراد" (فرديناند، ٢٠١٦، صفحة ٣٦). يفهم من هذا النص أن

الانطباعات المستقرة في الذهن ماهي إلا الصورة الذهنية التي تعتبر مكوّنا أساسيا من مكوّنات العلامة اللغوية بالإضافة أن اللسان ذو طبيعة اجتماعية، فالمدلولات موزّعة في أذهان الفئات الاجتماعية وكأّما قاموس وُزّع عليها. ولقد أشار الدكتور محمد رشاد الحمزاوي إلى مقارنة اللسان والكلام في الفكر اللساني الغربي بما يعادله مفهوما في التفكير المعجمي العربي القديم وبخاصة عند الخليل بن أحمد، يقول: "استنباط مفهوم المعجم اللغوي المكتمل المثالي يستوعب اللغة كلها والتي تتفرّع مداخله إلى مفهومين جوهرين: المهمل والمستعمل. فالأول يعني الموجود بالقوى من المداخل والثاني الموجود بالفعل منها." (الحمزاوي، ١٩٩٤، صفحة ٢٢).

يكون كل من المهمل والمستعمل الرصيد اللغوي الكامل والمستعمل هو الذي عبّر عنه ابن دريد بالجمهرة وابن سيده بالمخصص، وفي سياق ربط المفاهيم اللسانية بما يعادلها في تراثنا يقول الدكتور محمد رشاد الحمزاوي في سياق آخر ما نصه: "فالخليل قد قاربها قبل أن يقاربا هبوت ودي سوسير وشومسكي حسب مفهوم اللغة (Langue) مقابلة بالكلام (Parole). فاعتمد اللغة والرياضيات وركزها على مبدأ "التقليب" ليبيّن أنّ اللغة "مهمل" أو موجود بالقوة يشمل "مستعملا" أو موجودا بالفعل." (الحمزاوي، الخليل بن أحمد الفراهيدي ونظريته المعجمية، ١٩٩٤، صفحة ١٧١).

وبذلك تحضر ثنائية سوسير اللسان/كلام بمعادل في النظرية المعجمية وهو الموجود بالقوة/الموجود بالفعل. وإذا كان للتفريق بين اللسان والكلام أثر على المفاهيم اللسانية والتي أدت حسب سوسير إلى ظهور لسانيات اللسان ولسانيات الكلام، فإنها بالتوازي حدّدت منهجين مختلفين في دراسة الظاهرة اللغوية وهي اللسانيات السانكرونية واللسانيات الدياكرونية.

أمّا بالنسبة للعلامة اللغوية بطرفيها الصورة السمعية (الدال) والصورة الذهنية (المدلول)، فإنّه لا يخفى على أيّ قارئ مبتدئ أنّها تعادل الوحدة المعجمية في أبسط صورها: لفظ + معنى.

إذا أمعنا النظر والتأمل في طبيعة العلاقة بين الدال والمدلول كما ارتضاها سوسير وهي الاعتبارية، وبالرغم من الانتقادات التي وجهت إليه حول هذا المفهوم إلا أنّه أفرز بدوره مفهوم تبادلية العلامة وعدم تبادليتها، يقول حنون مبارك: "ويخلص بنفيس من ذلك إلا أنّ الرابط بين الدال والمدلول ليس اعتباريا، وإنّما هو، على النقيض من ذلك، ضروري. إنّما بينهما تلاهما حدّ وثيق" (مبارك، ١٩٨٧، صفحة ٥٧) والدليل على ذلك أنّ صفة الاعتبارية أو العلاقة غير المبررة هي التي تسمح للدال أن يغيّر مدلوله أو أن يستغي المدلول عن داله، عكس ذلك إذا كانت تلازمية مثلا.

وفي هذا السياق وفي النظرية المعجمية يتجلى هذا المفهوم أكثر حين يقع التبادل بين الدوال ومدلولاتها أو يستغي أحدهما عن الآخر، يقول إبراهيم بن مراد: "وليس من صفة الدوال والمدلولات الاستقرار لأنها قد تُنقل من مواضعها المعجمية فتحوّل الدوال عن مدلولاتها الأصلية أو تحوّل مدلولات عن دوالها الأصلية وتسد إلى غيرها. بل تبلى دوال ومدلولات ببلي المراجع (Référénts) التي ترتبط بها" (مراد، ١٩٩٢، صفحة ١٢).

وإذا رمنا البحث في ملامح كل من محوري الترتيب والاستبدال في الصناعة المعجمية نجد أنّ المعاجم تستثمر هذين المحورين في معالجة المفردة يقول الدكتور بسام بركة: ((فإننا نرى أنّ معالجة الكلمة في معجمنا يجب أن تأخذ في الاعتبار نتيجة عمل هاتين العلاقتين على طبيعة الكلمة. يجب إذاً أن يقدم المعجم:

- معجم كلمات ترتبط بالكلمة المدخل ضمن تركيبة أو تراكيب نحوية معيّنة ذات التواتر الأكبر إحصائياً في المدونة.

- كلمة أو كلمة أخرى ترتبط في اللغة بالكلمة المدخل: علاقات دلالية (ترادف، طباق...)، علاقات شكلية (جناس...) (بركة، ٢٠١٤، صفحة ١٨١)

لا يمكن في أية حال من الأحوال أن نتعامل مع المفاهيم اللسانية التي جاء بها سوسير كمفاهيم مستقلة عن بعضها البعض، بل إنّ التسق هو الذي جعل لسانيات سوسير تتسم بالتحانس والشمولية. وإذا كانت هذه المفاهيم تتماثل في الممارسة المعجمية فلا يمكن تناولها خارج نسق محدّد. وإذا قصدنا البحث في مفهوم الآنية والزمانية في النظرية المعجمية فمن الضروري الالتفات لمختلف المفاهيم التي تبلورت في البحث اللساني والمعجمي على السواء.

الآني والزمني في الصناعة القاموسية:

نشير قبل أن نستظهر مفهوم الآنية والزمنية في الصناعة المعجمية إلى أن المعاجم صنّفت وفق معايير مختلفة ومتباينة؛ منها لغوي/ موسوعي، عام/ متخصص، لغة واحدة / لغتان أو أكثر، وصفي/ معياري، زمني/ تعاقبي. لقد كان لظهور فكرة المعجم التاريخي للغة العربية منذ "فيشر" ثم إلى مشروع قومي تتكفل به المركز العربي للأبحاث دراسة السياسات الأثر في البحث المعجمي العربي، إذ أضحت البحث في المعجم التاريخي هو في المقابل بحث في المعجم الآني. وإذا كانت السانكرونية تبحث في واقع اللسان وحالته في فترة زمنية محدّدة، فإن التناول الدياكروني يبحث في الظاهرة اللسانية وعلاقتها بالزمن، يقول حنون مبارك: " وعلى اللساني الذي يدرس وقائع اللسان، أي حالته، أن يتجاهل الدياكرونية. فإلغاء الماضي مسألة ضرورية لولوج وعي الذوات المتكلمة. ذلك أنّ تدخل التاريخ يجعل من حكمه حكماً خاطئاً. فكل إنسان يتخذ موقعا للنظر إلى الشيء ما لا يمكنه أن ينظر إليه من كل الجهات" (مبارك، ١٩٨٧، صفحة ٥٧)

فينطبق ما يقوم به الألسني في تناول الظاهرة اللغوية مع ما هو منتظر من المعجمي فيمكن أن ينظر للوحدات المعجمية في آنيتها وثبوتها ويمكن أن ينظر إلى أثر الزمن في الوحدات المعجمية لأن الهدف هنا تتبع التاريخي والتطوّري، ومن هذا المنطلق نجد بعض الدراسات الحديثة التي تهتم بالمعجم التاريخي تقارنه في دراستها بالمعجم الآني الوصفي يقول عبد الرزاق بنور: " يختلف المعجم التاريخي عن المعجم اللغوي الآني في مسألتين: تتعلق الأولى بكون المعجم التاريخي تبريرياً، تتمثل وظيفته الأساس بإبراز مراحل التطور الشكلي والدلالي وتبريرها. في المقابل، يكون المعجم اللغوي وصفيًا غير تبريري... تتمثل المسألة الثانية بترتيب المعاني والأشكال؛ إذ في حين تجعل المعاجم اللغوية

الأنية المعاني الشائعة قبل الغربية والمستعملة قبل المهملة أودونها، يلتزم المعجم التاريخي بضوابط أخرى." (بنور، ٢٠١٤، الصفحات ١١٤-١١٥)

ويمكن أن نركّز على بعض المفاهيم الأساسية في البحث المعجمي لتستبين لنا علاقتها بالأنية والتطورية منها؛ المدونة والمدخل المعجمي، والتعريف.

أ. المدونة:

تعتبر المدونة من الأصول المهمة في الصناعة القاموسية، لأنها حصيلة جمع ووضع كما عرفته المعجمية العربية القديمة، وقد أشار إلى ذلك ابن منظور بقوله: " ورأيت علماءنا بين رجلين: أمّا من أحسن جمعه فإنه لم يحسن وضعه، وأمّا من أجاد وضعه فإنه لم يجد جمعه، فلم يفد حسن الجمع مع إساءة الوضع، ولا نفعت إجادة الوضع مع رداءة الجمع" (منظور، صفحة ١١). فإنّ هاتين العمليتين مهمتين في صياغة المدونة والتي لا يمكن أن تتناقض مع الوظيفة التي ابتغاه المعجمي من معجمه.

وإذا تأملنا واقع المدونة في المنجز التراث العربي نلفي الخليل بن أحمد الفراهيدي ينفرد باعتماد على مدونة استقاها من كلام العرب مباشرة " مع ما تكلمت به فكان مدار كلام العرب وألفاظهم فلا يخرج منها عنه شيء" (الفراهيدي، صفحة ٤٧)

واعتمد في ذات الوقت على مبدأ التقليل الذي يعتبر مفهوم من المفاهيم الرياضية. فالمدونة في ذات المقام تمتاز بالأنية المطلقة لأنها توقّرت فيها معالم المنهج الوصفي. وبعد انقضاء مرحلة التدوين التي عرفتها الحضارة العربية الإسلامية، أصبح معجم العين وغيره في حد ذاته مدونة مجموعة من المعاجم وذلك لأسباب ارتبطت في الفكر التراثي زمن ومكان الفصاحة وصفاء السليقة وهي بذلك آنية وصفية، تعتمد معاجم مفردات القرآن الكريم على رصيد لغوي محدّد بين دفتين وهو القرآن الكريم ومع ما يتصف به من الثبوت والأنية على مستوى الدوال، وقد لاحظنا في صياغة مدوّنته بعض العيوب، والتي وقف عندها السمين الحلبي " غير أنه، رحمه الله تعالى، قد أغفل في كتابه ألفاظا كثيرة، لم يتكلّم عليها ولا أشار في تصنيفه إليها، مع شدّة الحجة لمعرفتها، وشرح معناها ولغتها، مع ذكره لمواد لم ترد في القرآن الكريم." (الحلبي، ١٩٩٦، صفحة ٣٨) ومعنى ذلك أن الرصيد اللغوي ثابت وآني، وتبقى مهمة المعجمي في الجمع والوضع.

أمّا المدونة في المعجم التاريخي الذي تكفّل به المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات فهي مدونة مفتوحة تبدأ من أقدم نص تمّ تدوينه إلى نهاية ٢٠٠٠م وهو نص مفتوح يمكن في أي وقت من الأوقات الزيادة في مادته. يقول: " هناك اختيارات متعدّدة في تحديد منطلق المعجم التاريخي، أهمها الانطلاق من أقدم نص عربي موثق إلى أحدث نص. يتطلّب ذلك بناء مدونة لغوية شاملة تتضمن النصوص العربية الفصيحة، الورقية والإلكترونية، منذ أقدم نص إلى نهاية ٢٠٠٠م. وتظل المدونة مفتوحة لكل ما سيُحقّق من مخطوطات، وما سيكتشف من النقوش والبرديات... كما ستظل مفتوحة لما سيطلع من نصوص حديثة." (البوشيخي، ٢٠١٤، صفحة ٢٤)

كما وُظف في صياغة مدوثة المعجم التاريخي مفاهيم ترتبط أساسا بفكرة التطور والاستمرارية وهو مفهوم التحقيب، إذ قسّم القائمون على هذا المشروع العمل إلى مراحل لإنجاز المدوثة:

المرحلة	امتدادها	المدة الزمنية (بالأعوام)
الأولى	من بداية القرن الخامس قبل الهجرة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة.	3
الثانية	من بداية القرن الثالث إلى نهاية القرن الخامس للهجرة.	3
الثالثة	من بداية القرن السادس إلى نهاية القرن الثامن للهجرة.	3
الرابعة	من بداية القرن التاسع إلى نهاية القرن الحادي عشر للهجرة.	3
الخامسة	من بداية القرن الثاني عشر إلى عام 1421م الموافق لعام 2000م.	3
المدة الزمنية الكاملة		15

ب. المداخل المعجمية:

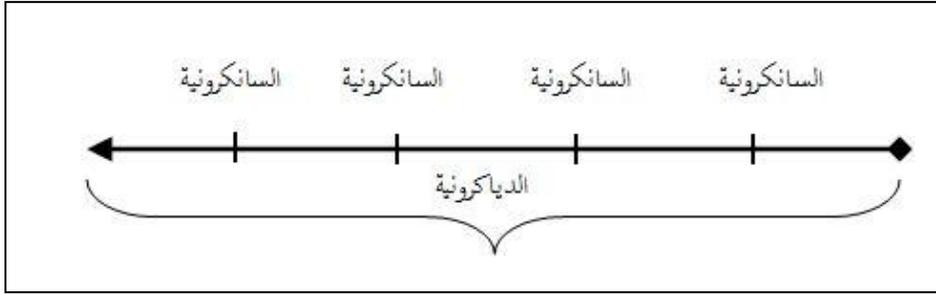
ترتبط بعض المفاهيم المعجمية في مجال ترتيب المادة بمفهوم الآنية أو الزمنية، ولكن قد تبيّن في بعض المصطلحات أنها تمت الصلة بمفهوم الآنية والزمانية، وإذا تأملنا مليا المنجز التراثي المعجمي العربي نجد مقاييس اللغة لابن فارس قد بُني على مفهوم الأصل لضبط أصول العربية ومعانيها، وقد شهد هذا المصطلح رواجاً واهتماماً من الصرفيين والمعجميين على السواء، وقد بنى ابن فارس الأصل على ثلاثة أحرف، ثم حاول إيجاد الصلة بين المفردات الأخرى اعتماداً على قواعد صوتية ومنطقية. ويعتبر المعجم التاريخي مجال هذه الأصول يقول محمد رشاد الحمزاوي: " فالأصل ينتسب في جل مظاهره إلى اللسانيات التاريخية وإلى المعجم التاريخي. وليس واقعا لغويا بل يبنى انطلاقا من شكل أو من أشكال آنية مستعملة بالاعتماد على عنصر صوتي مشترك أو معنى أدنى مشترك " (الحمزاوي، ١٩٩٤، صفحة ٩)

أما المصطلح الثاني الذي ينتمي إلى اللسانيات السانكرونية في مقابل مصطلح الأصل وهو مصطلح الأساس الذي يفيد عند سوسير معنى " الجذر " ويدرك بالتقطيع، يقول محمد رشاد: " فالأساس ينتسب إلى الموجود بالفعل من اللغة أو المستعمل الآني (السنكروني) وهو بالتالي موضوع من مواضيع اللسانيات الآنية " (الحمزاوي، ١٩٩٤، صفحة ٧)

ج. التعريف:

لكي يتبيّن لنا حضور مفهومي الآنية والزمانية في الصناعة القاموسية، نستحضر ثنائية المعجم التاريخي والمعجم الآني، ونقصد بالتعريف بناء النصّ الشارح للوحدة المعجمية، يعتمد النصّ في المعجم التاريخي على الآنية حين ينصرف إلى البحث عن أصل الكلمة ودلالاتها الأولية، ثم يحضر الإجراء الدياكروني لتتبع المسار التطوري للمعنى، يقول بسام بركة: " يجب أن يكون المعجم التاريخي في الوقت نفسه تزامنيا وتعاقبيا؛ إذ تقوم الدراسة التعاقبية

في الواقع على مقارنة بين دراسات تزامنية لظواهر لغوية متتالية في الزمن. " (بركة، ٢٠١٤، صفحة ١٧٦). ويمكن توضيح هذا النص بالشكل التالي:



يبدأ وصف المفردة في عملها الآني في كل مرحلة من مراحلها السكونية، ثم توصف بالمقارنة بين هذه المراحل. أما المعجم الآني فيركّز بداية على المعنى الشائع دون غيره، وإذا أورد المعاني المختلفة فلا يسعى إلى التقييد بالترتيب الزمني في تطوّر المعاني.

بالإضافة إلى هذا المعطى الإجرائي يُركّز في المعجم التاريخي على مفهوم الترسيس يقول عبد الرزاق بنور: "الترسيس Reconstruction هو إعادة بناء الأشكال المفترضة أو الحلقات الناقصة في التسلسل التطوري. ويعتمد الترسيس إما القوانين الصوتية أو القواعد المستنتجة من قياس الشبه والتواتر والاطراد" (بنور، ٢٠١٤، صفحة ١٢٠)

يفهم من النص أنّ مهمة المعجمي في هذا السياق أن يجد المبرر العلمي الذي يفصل بين سانكرونيين ليستقيم عنده التتبع التطوري، ولذلك قيل أن المعجم التاريخي هو معجم تبريري.

الخاتمة:

إنّ البحث في المفاهيم اللسانية في مجالها النظري وما ارتبطت به لتشكّل المعرفة اللسانية عامة ثم تتبع مسارها وحضورها في مجال اللسانيات التطبيقية هو في ذاته ممارسة علمية تحاول ربط المنجز النظري بالتطبيقي، وهذا ما تجلّى في مفهومي الآنية والتطورية في الصناعة القاموسية وعلم المعجم.

إن حضور فكرة الآنية والزمانية (سانكروني - دياكروني) في فكر سوسير وتطوّرها مع مختلف الاتجاهات اللسانية، أدت إلى الاهتمام بالظاهرة اللسانية ردحا من الزمن وفق توجه آني مع البنيوية خاصة، ولكن مع ظهور فكرة المعجم التاريخي للغة العربية بالدوحة. بدأ الاهتمام بالمنهج التاريخي - الزماني - لصياغة معجم تاريخي عربي، يعيد النظر في بناء المعاجم العربية التي كانت تتّصف بالآنية، وعليه فكان استحضار مفاهيم سوسير توجهها علميا متميّزا نستطيع من خلاله بناء منهج تاريخي يخدم صناعة معجمنا التاريخي كغيرنا من الأمم. لقد أثرت مفاهيم سوسير في المصطلح المعجمي من حيث تقسيمه إلى آني ودياركروني، فمصطلح الأصل يدرجه بعض المعجميين

ضمن المعجم الآني لثبوته. كما يحضر مصطلح التّرسيس في مجال المعجمية التاريخية؛ وهي التي تهدف إلى ضبط وتتبع التطور الدلالي للفظ.

قائمة المراجع

- ابن منظور. (بلا تاريخ). لسان العرب (المجلد ١). دار المعارف.
- الخليل بن أحمد الفراهيدي. (بلا تاريخ). كتاب العين.
- السمين الحلبي. (١٩٩٦). عنده الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ. لبنان: دار الكتب العلمية.
- حنون مبارك. (١٩٨٧). مدخل للسانيات سوسير. المغرب: دار تونقال للنشر.
- دي سوسير فرديناند. (٢٠١٦). محاضرات في علم اللسان (الإصدار ٣). (عبد القادر قنيني، المترجمون) المغرب: إفريقيا الشرق.
- عبد المجيد جحفة. (٢٠٠٦). دلالة الزمن في العربية (الإصدار ١). المغرب: دار تونقال.
- فردينان دي سوسير. (١٩٨٥). دروس في الألسنية العامة. (صالح القرمادي، محمد الشاوش، محمد عجيبة، المترجمون) دار العربية للكتاب.
- مجموعة من المؤلفين - نحو معجم تاريخي للغة العربية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط: ١، أبريل ٢٠١٤.
- ميشال أريفيه. (٢٠٠٩). البحث عن دي سوسير (الإصدار ١). (محمد خير محمود البقاعي، نادر سراج، المترجمون) طرابلس: دار الكتاب الجديد المتحدة.

الدوريات

- مجلة المعجمية، (١٩٩٤)، العدد: ٣، ٩، ١٠